الحياة من منظور الموت: الدراما التاريخية عند محمد عناني - رؤى معاصرة في قوالب مسرحية خالدة

مصطفى رياض

محمد عناني (1939-2023) كاتب مسرحي تستحق أعماله الدرامية الاهتمام النقدي، يستوحي من تاريخ مصر الغني الممتد عبر مختلف العصور .تستكشف أعمال عناني الماضي وتكتشف أوجه تشابه ملحوظة بين العصور التاريخية وهموم ومعضلات العصر الحالي .مع تركيز شديد على تقديم تقنيات المسرح العربي والمفاهيم الثقافية المحلية جنبًا إلى جنب مع المسرح الغربي، يُظهر عناني عبقرية إبداعية ويقدم مزيجًا فريدًا من التقاليد الفنية .بصفته أستاذًا متميزًا للأدب الإنجليزي ومترجمًا لأربعة وعشرين من أصل سبع وثلاثين مسرحية شكسبيرية، ينسج عناني بمهارة عناصر من أعمال بارد في إنتاجاته، مما يثري التجربة المسرحية لجمهوره .

يستكشف هذا البحث العلاقة بين التاريخ والوقت الحاضر من خلال الممارسات المسرحية العربية والمفاهيم الثقافية .كما تمت الإشارة إلى أوجه التشابه بين مسرحيات شكسبير وأعمال عناني .المسرحيات التي تم اختيارها حسب ترتيب النشر هي ثلاث مسرحيات عربية طويلة: "الغربان" (1986)، "جاسوس في قصر السلطان" (1990)، "القصاصات" (1994)، ومسرحية من فصل واحد بعنوان: "قصة منزل .(1993) "

"قصة منزل"، على الرغم من كونها مسرحية من فصل واحد، إلا أنها تشمل الخطوط العريضة للفن الدرامي عند عناني .تدور أحداث المسرحية في ردهة قصر مملوكي تركي قديم .الشخصيات هي شاب يدعى متولي يأتي لمعاينة المنزل كمستأجر محتمل، ورجل عجوز يدعى شابور يرتدي جلبابًا وهو صاحب المنزل، ورجل في منتصف العمر يدعى عاصي وهو ابن أخت شابور .يتميز المكان ببيئة تاريخية مع نقوش إسلامية قديمة وزخارف خشبية، والأرضية مغطاة بسجاد غني .المكان مليء بالغبار، يسعل شابور. اتضح أن المنزل معلم أثري قديم صمد لقرون وقاوم أي محاولة للهدم .يعزو صاحب المنزل فشل هدم المنزل إلى تأثير الأرواح التي تمنع أي محاولة لهدمه .على الرغم من أن متولي، المستأجر المحتمل، يحب المنزل، إلا أنه يفتقر إلى وسائل الراحة الحديثة .كما أنه مدرس في مدرسة قريبة ويمثل المعرفة التي تعارض هذه الخرافات .يزوره عطوة البقال الذي يعرض خدماته ويحذره من الأرواح في المنزل .يظهر موسى، أحد طلاب متولي، ويناقش مع مدرسه بعض أبيات الشعر المفقودة من قصيدة محفورة في الحمام .اتضح أن القصيدة الكاملة محفورة في مسجد قديم .يهتم كلاهما بالشعر لتحديد تاريخ بناء المنزل، وبالتالي يؤكدان على أهمية التحقق من التراث

الوطني وتعزيزه .يستقبل متولي زائرًا غير معروف يناقش معه روعة الخط في الاقتباسات المرسومة بشكل جميل في المنزل القديم .يشترك كلاهما في الإعجاب بالإنجاز الفني الواضح في ذلك المنزل .ينشر موسى، الطالب، مقالًا عن القيمة التاريخية للمنزل .يثير نشره غضب شابور وعاصي اللذين يخططان لطرد متولي الذي كشف القيمة الحقيقية للمنزل وأعادا النظر في معتقداتهما الخرافية تحسبًا للربح المادي .يخططان كلاهما لهدم المنزل بحثًا عن كنز مخفي وبناء مبنى سكني حديث مكانه .يعاود الزائر المجهول زيارة متولي ويصرح بأن المنزل سيتم تدميره لأن الناس لم يعودوا يحبونه أو يهتمون به .رسالة عناني في نهاية المسرحية المفتوحة هي أن استمرار التاريخ والقيم التقليدية يعتمد على ارتباط الناس بهما .

في مسرحية عناني الشعرية "الغربان"، ينتقل الجمهور إلى عصر القمع لنظام حاكم في مصر .من خلال رمزية قوية، تمثل الغربان الحاكم وأعوانه الذين يستغلون ثروة البلاد لمصلحتهم الخاصة .كما يُتهمون زورًا من قبل شعب مصر بسرقة محصول القمح بأكمله .ومع ذلك، يتبين أن الغربان وزعت القمح على الناس، مما يُبرز دورها كحامٍ لثروة البلاد التي نهبها الحكام المستبدون .تدور أحداث المسرحية في ساحة أمام قصر الحاكم، تذكرنا بالفنون الشعبية التي يتردد صداها مع التراث المصري .هنا مرة أخرى، يروي رواة القصص، وخاصة راوي الزمن، الحكاية للجمهور، حيث ينسجون سردًا يتماشى مع التقليد الملحمي لبريشت مع الحفاظ على الصلة بأشكال الفن المصري لمسرح السامر .يقدم تصوير عناني لراوي الزمن التاريخ من منظور عامة الناس، مما يتحدى الرواية الرسمية التي يروج لها أصحاب السلطة ومؤرخوهم .يتردد صداها مع مفهوم علم آثار المعرفة، كما وصفه فوكو2002) ، 148، 155 .(56-ومع ذلك، فإنه يكتسب نكهة مصرية فريدة مع تطور المسرحية، مما يُمكن الناس ويوضح انتصارهم على محاولات الحاكم لسرقة القمح والحفاظ على منصبه .في النهاية، يُعزل الحاكم، ويخرج الناس منتصرين .

في قلب القصة، نلتقي بعاشقين شابين، زهير ومايسة .انجذبت مايسة إلى إغراء العيش المريح، واستسلمت لطلب الحاكم بالانضمام إلى حريمه .ثم يتآمر وزير مخادع لاختطاف مايسة وإبقائها في حوزته .كانت الخطة أن يجتمع زهير مع حبيبته السابقة ويكشف الحقيقة عن القمح المختفي .كان الوزير سيتنصت ويحصل على المعلومات التي تسمح له بالدخول في صالح السلطان واستبدال الحاكم الحالي .ومع ذلك، تنجح جهودهم لكشف المؤامرة عندما يُعزل الحاكم من منصبه ويفقد الوزير منصبه .يبقى سر الغربان آمنًا .

تُعد مسرحية "الغربان" لعناني تصويرًا قويًا للمقاومة والتمكين في مواجهة الأنظمة القمعية .من خلال رمزيتها الغنية، والتفاعل مع التقاليد الفنية المصرية، والتحديات التي تواجه الروايات الرسمية، تُسلط

المسرحية الضوء على قوة الناس ومرونتهم.يؤكد عناني على أهمية الوحدة والعمل الجماعي في السعي لتحقيق العدالة والتحرر من خلال استعادة ثروة بلادهم والانتصار على الحكام الفاسدين .

في مسرحيته "القصاصات"، يتناول عناني ظاهرة النفاق الديني والمزاعم الكاذبة للمتصوفة المخادعين الذين يقدمون حلولًا سهلة للأشخاص الذين يثقون بهم بدافع الجهل ويستسلمون لفهم ساذج للدين.يُشكل عناني المسرحية على أنها "كوميديا موسيقية رائعة."تمتلئ المسرحية بمشاهد ساخرة تُقارن بين خداع المتصوفة وجهل الناس، وهي غنية بعنصر الخيال الذي يستغله عناني من خلال قدرة المتصوف غير العادية على السفر من الحاضر إلى الماضي مدفوعًا بقراءته لكتب التراث العربي، وخاصة أغاني أبو الفرج الأصفهاني (المتوفى 967/356) وتاريخ ابن جرير الطبري (المتوفى 923/310).سواء سافر أبو سبع إلى عصر ما قبل الإسلام أو إلى العصر الأموي، فإن عناني يقدم الحياة في كلا العصرين على أنها متنوعة، تتراوح من مظاهر الفن، وخاصة الشعر والغناء، إلى الاستبداد والعنف.إنه ينزع الصورة المثالية للعصور السابقة التي نشرها الأصوليون أثناء كتابة المسرحية.تختتم أحداث المسرحية بوقوع أبو سبع في الماضي وعدم عثوره على طريقة للعودة إلى الحاضر.يأخذ عبد الله، مساعده ذات مرة، مكانه كمتصوف جديد، ويستمر في خداع الناس وتحقيق مكاسب على حسابهم.المسرحية مليئة أيضًا بالأغاني الشعبية والأناشيد التي تؤديها فرقة موسيقية تصاحب المتصوف المعاصر أبو سبع، وموسيقى تراثية تغنيها مغنيات وموسيقيات من العصور القديمة.في الملاحظات الختامية الملحقة بالمسرحية، يؤكد عناني أنه كان ينوي الكشف عن ثلاث ظواهر سائدة في المجتمع المصري عند كتابة المسرحية عام 1991، وكلها تقوم على الخداع.انتشار الأصولية الدينية، التي اتخذت شكل واجهة تخفي خوائها، هي أولها.ثانيًا، استغلال الدين لخداع الناس وأخذ أموالهم فيما يُعرف بـ "الكشف عن البركة."وأخيرًا، ظاهرة موسيقى الشباب الشعبية التي لا علاقة لها بالموسيقى العربية وتعتمد على الموسيقى المسجلة مسبقًا والتي تُعزف على الآلات وتفتقر إلى الروح الشرقية .

في المسرحية، تكون عناصر الاغتراب واضحة، حيث يعترف أبو سبع بأنه ممثل وأن جميع الشخصيات تلعب أدوارًا.وينطبق الشيء نفسه على عبد الله عندما يحل محله بعد اختفائه.تساهم عروض الرقص والغناء أيضًا في كسر الوهم المسرحي.كل هذا دعوة للمشاهدين للتفكير فيما يشاهدونه وفهم المشكلة والحلول الممكنة.هم أنفسهم هم المسؤولون. بمعنى آخر، يبدو أن عناني يتبنى تقنيات بريشت للاغتراب، لكن إعداد مسرحيته يُذكر بتقنيات مماثلة للاغتراب في التقاليد العربية للراوي وتقاليد العرض المعروف باسم السامر .

مسرح السامر هو شكل فني مصري تقليدي يعود تاريخه إلى العصور الوسطى، ويقدم عروضًا موسيقية ومسرحية تعكس الحياة والثقافة المصرية .كما يتميز بأشكاله الفنية الجميلة والمتنوعة وعروضه المتنوعة .فن الفرجة هو جزء من فنون مسرح السامر، حيث يقدم عرضًا مسرحيًا يجمع بين العناصر الموسيقية والتراثية والسردية .تُصوِّر الفرجة قصصًا تاريخية أو شعبية وعادات وتقاليد مصرية. قد تشمل أيضًا الفكاهة والنكات لترفيه الجمهور .

في "جاسوس في قصر السلطان"، يقدم عناني كوميديا بنكهة سياسية تدور أحداثها خلال الصراع بين العرب والتتار .يُصوِّر عناني السلطة السياسية في مصر على أنها ملوثة بالفساد وهيمنة المصالح الخاصة على المصالح العامة .ينشغل المماليك بالحرب ضد الروم لجمع الغنائم والعبيد، ويهملون الاستعدادات لقتال التتار الذين يهددون الحدود .في الواقع، يسعى السلطان للزواج من ابنة ملك التتار .لا يخلو الجو السياسي من المتآمرين الطموحين الذين يسعون للإطاحة بالسلطان والاستيلاء على السلطة .علاوة على ذلك، يتم الإعلان عن انتصارات زائفة للشعب على عكس الهزائم المتتالية الفعلية التي تحدث ضد التتار .تبدأ المسرحية بغرق سفينة كان محمود ونجارو القاهرة ينتظرونها لصنع أثاث الزفاف للعروسين .محمود، شاب يُحب بلاده، مع مجموعة من الحرفيين في حي في القاهرة القديمة يناقشون الأوضاع السيئة .يقرر محمود، الواعي بعيوب السياسيين في عصره، أن يأخذ زمام المبادرة ويذهب إلى قصر السلطان لمحاولة الحصول على الخشب المتوفر بكثرة في ساحة القصر .في قصر السلطان، تحدث حالة من الخطأ في الهوية. يُعتقد خطأً أن محمود جاسوس تتار .يلتقي بالعديد من الشخصيات في القصر والتي تمثل الجو السياسي المضطرب داخل القصر . هناك السيدة خاتون، ابنة السلطان السابق الذي قتله السلطان الحالي، والتي ترى في محمود الفارس الأسود الذي سينقذ البلاد من القمع .هناك أيضًا غازية، المرأة المصرية التي نشأت بين المماليك لكنها اختارت أن تنحاز إلى الشعب ضد ظلم وفساد المماليك وتسعى لإقناع محمود بالانضمام إليها .يتنافس المتنافسان سيف الدين وعالم الدين على السلطة، وهي منافسة تصل إلى ذروتها عندما يقتل سيف الدين السلطان ويتهم محمود زورًا بأنه جاسوس التتار .حتى أن محمود يلتقي بالسلطان الذي يتعرف عليه خطأً على أنه متعاون مع التتار . ومع ذلك، يعامله السلطان بلطف ويذكره بعرض زواجه من ابنة ملك التتار، مما يصدم محمود ويقوده إلى إظهار النفور من خطة السلطان على أسس وطنية .يتصاعد العمل عندما يقتل سيف الدين السلطان وغازية ويحاول عقد صفقة مع محمود الذي يتخيله تتارًا .يشتد الصراع بين سيف الدين وعالم الدين عندما يصل عالم الدين ويكتشف هوية محمود، ويتهم سيف الدين بقتل السلطان ويحاول رشو محمود من خلال عرض الخشب الذي جاء ليطلبه .ومع ذلك، يتخذ رفاق محمود في حي القاهرة القديمة إجراءات لإنقاذ محمود وتخليصه من

قبضة أمراء المماليك .يواجه محمود الأمراء، وتنضم إليه الجماهير لإنهاء نظام القمع والاستبداد .تنتهي المسرحية بحرق الأخشاب في ساحة قصر السلطان .ومع ذلك، يظل تصميم محمود وعزم أهل القاهرة ثابتًا وهم ملتزمون بمحاربة التتار، ويرحبون بمزيد من شحنات الخشب بمجرد تحقيق النصر، وضمان سيطرة شعب مصر على شؤونها .

يؤكد عناني دور الشعب في حكم بلاده إذا أدركوا قوتهم واتخذوا إجراءات لإنهاء فساد حكامهم .إن وطنية محمود ومبادرته الإيجابية للحصول على الخشب لا تكفي، فهو لا يبدأ حقًا في إحداث فرق إلا عندما يتحد زملاؤه وجماهير القاهرة حوله .

يستفيد عناني من معرفته الواسعة بشكسبير كمترجم لأكبر عدد من الترجمات الشكسبيرية إلى اللغة العربية. تتمتع الشخصيات والمؤامرات الشكسبيرية ببعد عالمي، لكن شكسبير يمنحها لونًا إنجليزيًا محليًا .وبالمثل، فإن عناني مستوحى من الشخصيات والمواقف الشكسبيرية. على سبيل المثال، في مسرحية "القصاصات"، على الرغم من أن شخصية فالستاف لشكسبير والمتصوف لعناني ينتميان إلى عوالم أدبية مختلفة، يفصل بينهما قرون وثقافات، إلا أنه يمكن إيجاد تشابه مذهل في أدوارهما كمخادعين ينجحان في القيام بأفعال تبدو وكأنها شيء ليسا عليه. يستخدم السير جون فالستاف، وهو شخصية في مسرحيات شكسبير، ذكاءه وسحره لخداع من حوله، ويقدم نفسه على أنه فارس شجاع ومشرف. وبالمثل، فإن المتصوف لعناني، في قصصه وتعاليمه، يتنكر في زي شيخ مبارك قادر على مضاعفة المبالغ المالية الموكلة إليه. تُجسد كلتا الشخصيتين فن الخداع، باستخدام أفعالهما لاستكشاف حقائق أعمق حول الطبيعة البشرية وتعقيدات التجربة الإنسانية.

تذكرنا "جاسوس في قصر السلطان" بمسرحيات شكسبير المعروفة بمؤامراتها المعقدة للهوية المخطئة، والتي تلعب دورًا مركزيًا في تعزيز التوتر الدرامي والعناصر الكوميدية. وبالمثل، فإن محمود النجار في مسرحية عناني يُجسد موضوع الهوية المخطئة حيث يُعتقد خطأً أنه جاسوس تتار. يُظهر هذا التشابه كيف يستكشف شكسبير وعناني عواقب وإمكانات الهوية المخطئة الكوميدية. من خلال تشابك حياة شخصياتهم في شبكة من الارتباك، يستغل كلا الكاتبين ببراعة الموارد الكوميدية لتعزيز تقدم حبكاتهم.

موضوع بعض الخطب الشهيرة في مسرحيات شكسبير يُلهم عناني أيضًا. في "جاسوس في قصر السلطان"، المصدر هو خطاب كاسيوس الذي يُقلل من عظمة قيصر - وهو خطاب موجه إلى بروتوس:

ذات مرة، في يوم عاصف وعاصف،

نهر التيبر المضطرب يرتطم بشواطئه،

قال لي قيصر: "هل تجرؤ يا كاسيوس الآن

أن تقفز معي في هذا الفيضان الغاضب،

وتسبح إلى تلك النقطة؟"

عند هذه الكلمة،

كما كنت مجهزًا، انغمست في الماء

وأمرته أن يتبعني، وهكذا فعل.

هدير التيار، وقاومناه

بعضلات قوية، نرميه جانبًا

ونسده بقلوب الجدل،

ولكن قبل أن نصل إلى النقطة المقترحة،

صرخ قيصر: "ساعدني يا كاسيوس، وإلا سأغرق"!

أنا، مثل إينياس، جدنا العظيم،

حملت من لهيب طروادة على كتفه

أنشيسس العجوز، هكذا من أمواج التيبر

حملت قيصر المُتعب.

وهذا الرجل

أصبح الآن إلهًا، وكاسيوس هو

مخلوق بائس ويجب أن يحني جسده،

إذا أومأ قيصر بلا مبالاة عليه.

كان يُصاب بالحمى عندما كان في إسبانيا،

وعندما كانت النوبة تصيبه، لاحظت

كيف كان يرتجف: صحيح أن هذا الإله كان يرتجف،

شفتاه الجبانة طارت من لونهما

وتلك العين التي يخيف انحناءها العالم

فقدت بريقها: سمعته يئن:

أجل، ولسانه الذي أمر الرومان

بتمييزه وكتابة خطاباته في كتبهم،

للأسف، صرخ: "أعطني بعض الشراب يا تيتينيوس"

كفتاة مريضة.

أيها الآلهة، هذا يُدهشني

رجل ذو مزاج ضعيف يجب أن

يتفوق على العالم المهيب

ويحمل راحة اليد وحده.

(I.ii. 101-132)

في حالة مماثلة، سيف الدين، الذي يحمل ضغينة ضد السلطان، لديه خطاب مماثل في سياق مُكيف مع عصر المماليك. يخاطب عالم الدين بهذه السطور:

عندما عدنا غداة الروع نجتاز الفلاة

وهبطنا بطن واد ليس يبدو منتهاه

هبت الريح سموما عاصفة

تملأ الوادي فحيحا ونباحًا وعواء

وغدا العثير في الجو سحابات سواد

تحجب الشمس كأن الكون تاه

زاغت الأبصار وأبيضت من الخوف الشفاه

وبدا الركب شعابًا يذرع المهمة في كل اتجاه

كلهم ينشد ما يعصمه

كلهم يرجو سبيلا للنجاة

وانثنى ذا المُنَزَّه يستجير ويستغيث

"أين سيف الدين؟" صاح

"أين ذلك القائد المغوار؟ أين مضى الكمأة؟"

لم أزل أذكر صوته

ضارعًا بل ذاهلا بل غافلا عما عداه

وأنا فوق جواد قد تبهنس

يألف الظلمة بالأهوال يأنس

سل عيون المهر كيف وجدت صاحبنا المؤله

سل ذراعي كيف شدته وألقته على سرجي ذليلا يتأوه

"جئت سيف الدين؟" صاح

"عسكري ياسيف طارت في الرياح

آه يا سيف رعاك الله للإسلام.. ذخرًا.." وبكى

ذلك الحاكم رب السيف

فاض الدمع من عينيه كالطفل الصغير

لم أغافل صاحب العين الهتون

بل نفخت في البوق واجتزت الكتائب

حاملا إياه خلفي بينما صاح النفير

اتبعوا سيفا إلى حيث يسير

ونجونا.

)٣٣ ـ ٣٥(

في عوالم البراعة العسكرية والقوة الذكورية، تظهر خطبتان مقنعتان من أعمال ويليام شكسبير ومحمد عناني. يعمل خطاب كاسيوس في مسرحية "يوليوس قيصر" لشكسبير وسطور سيف الدين في مسرحية "جاسوس في قصر السلطان" لعناني كأمثلة قوية للرجال العسكريين الذين يُقللون من شأن منافسيهم ويثبتون أنهم لا يستحقون. كاسيوس، المتآمر ضد قيصر، يُشكك ببلاغة في قوة قيصر من خلال التشكيك في قدرته البدنية والسخرية من نقاط ضعفه. من ناحية أخرى، يُظهر سيف الدين، وهو جندي في جيش السلطان، لسانًا حادًا وذكاءً حادًا حيث يُفضح بذكاء كفاءة السلطان على أنها مجرد وهم، ويكشف عن نقاط ضعفه الحقيقية. على الرغم من الفصل بينهما بالوقت والسياقات الثقافية، فإن كاسيوس وسيف الدين يعكسان بعضهما البعض في قدرتهما على استخدام الكلمات لتقويض مكانة خصومهما وتقليلها في نظر جمهورهما.

في الختام، تقدم مسرحيات محمد عناني المستندة إلى التاريخ والمستوحاة منه استكشافًا آسرًا للعلاقة بين التاريخ والوقت الحاضر، مما يُظهر عبقريته الإبداعية ومزيجه الفريد من التقاليد الفنية. من خلال استلهام الإلهام من تاريخ مصر الغني وإدخال تقنيات المسرح العربي والمفاهيم الثقافية المحلية، يقيم عناني صلة بين مختلف العصور ويلقي الضوء على اهتمامات ومعضلات اليوم الحاضر. علاوة على ذلك، فإن إدراجه لعناصر شكسبير يُثري التجربة المسرحية للجمهور، ويوفر بُعدًا عالميًا بنكهة مصرية محلية. من خلال تقنياته المسرحية التي تُثير الفكر، يتحدى عناني الروايات الرسمية ويُمكن عامة الناس، مما يُوضح انتصارهم على القوى القمعية. بشكل عام، يُعد عمل عناني شهادة على فهمه العميق للماضي والحاضر وقدرته على جذب الجماهير بإتقانه الدرامي.

References

Brecht, Bertolt. (1963) 1965. The Messingkauf Dialogues. Translated by John Willett. London: Methuen.

Enani, Mohamed. 1986. Al-Ghirbān [The Crows]. Cairo: General Egyptian Book Organization.

----. 1990. Jasūs fī Qaṣr al-Sultān [A Spy in the Sultan's Palace]. Cairo: General

Egyptian Book Organization.

----. 1993. Qiṣṣat Manzil [The Story of a House]. Cairo: General Egyptian Book Organization.

----. 1994. Al Darwīsh wa-l-Ghāziya [The Dervish and the Dancer]. Cairo: General Egyptian Book Organization.

Foucault, Michel. (1969) 2002. The Archaeology of Knowledge. Translated by A. M.

Sheridan Smith. London and New York: Routledge.

Al-Iṣfahānī, Abū al-Faraj. 1978. Kitāb al-Aghānī [Book of Songs]. Beiruit: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Sarhan, Samir, and Mohamed Enani, eds. 1999. Al-Mukhtār min Tārīkh al-Ṭabarī [The Select from the History of Ṭabarī]. Cairo: Maktabat al-Usrah.

Shakespeare, William. 2014. Julius Caesar. The Arden Shakespeare, edited by David Daniell. London: Bloomsbury.

Al-Ṭabarī, Abū Jaʿfar Muḥammad ibn Jarīr. Tārīkh Al-Umam wa-l Mulūk [The History of al-Ṭabarī].